

القضايا الكبرى في الإسلام

٥ - قتل حجر بن عدي

للأستاذ عبد المتعال الصعدي

هذه القضية من أكبر القضايا الإسلامية ، وقد قام المسلمون وقعدوا لها ، وعدوها على معاوية بن أبي سفيان في أربع عدوها عليه . روى ابن الجوزي بإسناده عن الحسن البصري أنه قال : أربع خصال كُنَّ في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة ، وهي أخذه الخلافة بالسيف من غير مشاورة ، وفي الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه يزيد وكان سكيراً خيراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطناير ، وادعائه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللماهر الحجر ، وقتله حجر بن عدي ، فياويل له من حجر وأصحاب حجر

وهذا إلى ما بلغه عدد الشهود في هذه القضية ، فقد بلغوا

فيها سبعين شاهداً ، ولم تصل إلينا قضية إسلامية بلغ الشهود فيها مثل هذا العدد ، وكل هذا يدل على ما لهذه القضية من الشأن في الإسلام ، وسنقوم بدراسة غير متأثرين فيها إلا بما يقضي به الشرع ، لأن حكمه فوق كل شخص ، ويجب أن يكون نافذاً في الناس كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، ورفيعهم ووضيعهم

كان حجر بن عدي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد القادسية في خلافة عمر ، وشهد بعد ذلك الجمل وصفين وصحب علياً ، فكان من شيعته ، وكان من أعظم الناس ديناً وصلاة وعلماً ، ولكنه كان مغالياً في تشيعه ، حتى إنه لم يسترح لما استراح له الناس جميعهم من تسليم الحسن بن علي لمعاوية ابن أبي سفيان . واجتماع كلمة المسلمين بعد ذلك الخلاف الذي كاد يقضي عليهم

وقد تم ذلك الصلح سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، فاستعمل معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة ، وأوصاه فيما زعم المؤرخون ألا يترك شتم علي وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والميب لأصحاب علي والإقصاء لهم ، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم ، فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو أحسن شيء سيرة ، ولكنه كان لا يدع شتم علي والوقوف

انحطاطه ، وهو كما قلنا أيسر تأليفاً وأقل عمقاً من سابقه . ومن أمثلته المتأخرة قول ابن نباهة ملغزاً في « القطائف » : أحاجيك ، ما حلوا اللسان وإنه لأبكم إذ تمزى إليه المارف يرى جالساً في الصدر ما كان كاملاً

فإن تقصوه فهو في الخلق طائف وللشريف فتح الدين القناني يلغز في « كمون » : يأبها المطار أعرب لنا عن اسم شيء قل في سؤمك تبصره بالمعين في يقظة كما يرى به القلب في « نومك » وذلك أن مقلوب أحرف « نومك » هو « كون » -

وقال صلاح الدين الصفدي ملغزاً في « الفيل » : أجم اسم تركيبه من ثلاث وهو ذو أربع ، تعالى الإله حيوان و « القلب » منه نيات لم يكن عند جوعه يرعاه « فيك » تصحيفه ، ولكن إذا ما رمت مكساً يكون « في » ثلثاه

وقال آخر ملغزاً في « بلبل » : وما طائر نصفه كله له في ذرى الدوح سير ولبت رأينا ثلاثة أرباعه إذا صفوها غدت وهي « ثلث » وكانوا ربما يهوى أحدهم إلى درك من السخف بعيد فيقول : يا من له الطول في العالي وبالماني لنا يسر إني كما قلت في سؤالي مامثل قولي نعم مقصراً و « نعم مقصر » يرادفها « إي وان » ؛ فذلك لغز في « إيوان » بحث به علي بن الحسين الموصلي إلى صديقه ومعاصره صلاح الدين الصفدي

وقريب منه قول شهاب الدين بن حجر ملغزاً في « صهباء » : يا فاضلاً هو في الأحاسيس ليس يخلو من ولع ما مثل قولك للذي يبكي الحبيب : « استكت رجع ا » (ينبع) محمود عزت هز

فيه ، والدعاء لثمان والاستغفار له ، فإذا سمع ذلك حجر بن عدى قال : بل إياكم ذم الله ولعن ، ثم قام وقال : أنا أشهد أن من تدمون أحق بالفضل ، ومن تزكون أولى بالذم ؛ فيقول له المغيرة يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسعاده . فإن غضب السلطان يهلك أمثالك . ثم يكف عنه ويصفح ، فلما كان آخر إمارته قال في علي وعثمان ما كان يقوله ، فقام حجر فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بالمسجد ، وقال له : سر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبسنا عنا وليس ذلك لك . فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون : صدق حجر وبر ، سر لنا بأرزاقنا ، فإن ما أنت فيه لا يجدي علينا نفعا . وأكثروا من هذا القول وأمثاله ، فزل المغيرة ودخل عليه قومه فقالوا : علام تترك هذا الرجل يجترى عليك في سلطانك ؟ فقال لهم : إني قد قتلته ، سيأتي من بعدى أمير يحسبه مثلي ، فيصنع به ما ترونه يصنع بي ، فيأخذه ويقتله

ثم توفي المغيرة فضم معاوية الكوفة إلى زياد بن أبي سفيان ، فقدم إليها من البصرة ، ثم قام في الناس فخطبهم ، وترحم على عثمان وأثنى على أصحابه ، ولعن قاتليه ، ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث ، فبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، وأنهم حصبوا عمرو بن حريث ، فشخص إلى الكوفة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه - وحجر جالس - ثم قال : أما بعد فإن غيب النبي والنبي وخيم ، إن هؤلاء جثوا فأشروا ، وأمنوني فاجترؤا علي ، والله لن لم تستقيموا لأدوائكم بدوائكم ، ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر ، وأدعه نكالا لمن بعده

ثم أرسل إلى حجر يدعووه وهو بالمسجد ، فقال له أصحابه لا تأنه ولا كرامة ، فرجع الرسول فأخبر زياداً بذلك ، فأمر صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ، ففعل فسيهم أصحاب حجر ، فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم أنشجوني بيد وتأسون بأخرى ، أبدأنكم منى وقلوبكم مع حجر الأحق ، هذا والله من دحسكم ، والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصمركم . فقالوا : معاذ الله أن يكون لنا

رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك . فقال لهم : فليقم كل رجل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ، ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه ، ثم بعث زياد صاحب شرطته إلى حجر وأمره أن يشد عليه وعلى أصحابه بالسيوف إن لم يتبعوه ، فأتاه صاحب الشرطة يدعو فنهه أصحابه من إجابته ، وحصل بين الفريقين قتال لجأ بعده حجر إلى داره ، ثم انتقل منها إلى دور بعض أهل الكوفة يختفي بها ، ولما ضاق عليه الأمر أرسل إلى محمد ابن الأشعث الكندي ليأخذ له من زياد أماناً حتى يبعث به إلى معاوية ، فجمع محمد جماعة ودخلوا على زياد فاستأمنوا له على أن يرسله إلى معاوية فأجابهم ، فأرسلوا إلى حجر فحضر عند زياد ، فلما رآه قال : مرحباً بك أبا عبد الرحمن ، حرب في أيام الحرب ، وحرب وقد سالم الناس ، على أهلها نجني براقتي . فقال حجر : ما خلعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ، وإني لملي بيمتي . فقال زياد : هيات هيات يا حجر ، تشج بيد وتأسو بأخرى ، وتريد إذا أمكن الله منك أن ترضى ، كلا والله . فقال حجر : ألم تؤمنني حتى آتي معاوية فيرى في رأيي ؟ فقال زياد : بلى قد فعلنا ، انطلقوا به إلى السجن

ثم بعث زياد إلى أصحاب حجر حتى جمع منهم اثني عشر رجلاً في السجن ، ودعا رؤساء الأرباع وهم عمرو بن حريث وخالد بن عرفة وقيس بن الوليد وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري ، وقال لهم : اشهدوا على حجر بما رأيتم منه ، فشهدوا أن حجراً جمع إليه الجوع ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه ، وعلى مثل رأيه وأمره

وقد نظر زياد في شهادتهم فقال : ما أظن هذه الشهادة قاطعة ، وإني لأحب أن تكون الشهود أكثر من أربعة . فكتب أبو بردة شهادة غيرها قال فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبي موسى الله رب العالمين ، شهد أن حجر بن عدى خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجوع بدعوه إلى نكت البيعة ، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عز وجل كفر

ترفع أيها القمر النير تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
تجبروت الجبار بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
ألا يا ليت حجراً مات موتاً ولم ينجر كما نجر البير
فإن يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير
والذين لا يمدرون معاوية في قتل حجر يرون أن ما حصل
منه لا يحل به سفك دمه ، لأن دم السلم حرام ما لم يرد عن
دينه أو يسفك دم غيره ، وقد حملوا في ذلك آية الحاربة على
خلاف ظاهرها ، وهي قوله تعالى في الآية - ٣٣ - من سورة
المائدة (إنا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسمون في الأرض
فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف
أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة
عذاب عظيم) فذهبوا إلى أن أوفى هذه الآية للتفصيل لا للتخيير ،
وعلى هذا يكون جزاء أولئك المحاربين أن يقتلوا إذا قتلوا ، وأن
يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال ، وأن تقطع أيديهم وأرجلهم
من خلاف إذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، وأن ينفوا من الأرض
إذا أخافوا الناس ولم يأخذوا مالاً ولم يقتلوا

ولا شك أن هذا كله خلاف ظاهر الآية ، ولهذا ذهب
كثير من السلف إلى أن أوفى للتخيير لا للتفصيل ، فيكون
ولي الأمر خيراً في هذه العقوبات يجتهد فيها على ما تقتضيه
مصلحة الدولة ، ولا يتقيد فيها بتلك القيود السابقة ، وقد أخذ
معاوية بهذا في حكمه على حجر ، ورأى أنه أمام فتنة إذا لم يأخذ
فيها بأقصى العقوبة استطار شرها ، ويكون في ذلك من البلاء
على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر وأصحابه ، وقد كان له
أن يأخذ في ذلك بأخف هذه العقوبات وهو النفي من الأرض ،
ولكنه استعمل فيه حقاً أباحه له الله تعالى ، وله في ذلك اجتهاده
الذي يمدح فيه ولو كان خطأ ، ولو أنه استعمل في ذلك أخف
هذه العقوبات لكان أولى وأحسن

وكان على حجر وأصحابه أن يتعظوا بتلك الفتن التي ذهبت
فيها دماء من لا يحصى من المسلمين ، وقتل فيها خليفتان من
الخلفاء الراشدين ، وأن يسمهم في ذلك ما وضع من كان أعلى
منهم مقاماً ، وأعظم شأنًا ، وأقوى كلمة ، من كبار المهاجرين

سلاماً^(١) . فقال زياد : على مثل هذه الشهادة فاشهدوا ، أما والله
لأجهدن على قطع خيط عنق الخائن الأحمق . فشهد عليها
سبعون شاهداً من وجوه أهل الكوفة

ثم بعث زياد بحجر وأصحابه إلى معاوية ومعهم هذه الشهادة ،
فحبسهم بمرج عذراء ، وكتب إلى زياد : أما بعد فقد فهمت
ما اقتضت به من أمر حجر وأصحابه ، وشهادة من قبلك
عليهم ، فنظرت في ذلك ، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم ،
وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم ، والسلام

فكتب إليه زياد : أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت
رأيك في حجر وأصحابه ، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم ،
وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم ، فإن كانت لك
حاجة في هذا الأمر فلا تردن حجراً وأصحابه إلى

فلما قرأ معاوية كتابه أمر بقتل حجر وسبعة من أصحابه ،
وعفا عمن بقي منهم بشفاعته بعض أصحابه من قومهم ، وكان
مالك بن هبيرة السكوني قد قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين دع لي
ابن عمي حجراً . فقال له معاوية : إن ابن عمك حجراً رأس
القوم ، وأخاف إن خليت سبيله أن يفسد على مصرى ، فيضطربنا
غداً إلى أن نشخصك وأصحابك إليه بالفراق . فلما قتل معاوية
حجراً اعتزل مالك معاوية في منزله ، فأرسل إليه معاوية أن يأتيه
فأبى ، فبعث إليه بمائة ألف درهم ، وقال له : إن أمير المؤمنين
لم يمنعه أن يشفعك في ابن عمك إلا شفقة عليك وعلى أصحابك
أن يمدوا لكم حرباً أخرى ، وإن حجر بن عدى لو قد بقي
خشيت أن يكلفك وأصحابك الشخوص إليه ، وأن يكون ذلك
من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر . فقبلها وطابت
نفسه ، وأقبل إليه من غده في جوع قومه حتى دخل عليه
ورضى عنه

ولكن كثيراً من الناس لم يقبلوا هذا المذم من معاوية
في قتل حجر وأصحابه ، وأنكروا عليه هذا الحكم إنكاراً
شديداً ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لو لا أنا لم تغير شيئاً
إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه لنغيرنا قتل حجر ،
أما والله إن كان ما علمت إلا لسلماً حجاً جاك معتمراً . وقد
رثته هند بنت زيد الأنصارية وكانت تشيعُ فقالت في رثائه :

(١) يرى في هذا أن الخروج على الإمام وبطاعته كفر